قيمة و وزن الكتابة التاريخية الفرنسية في المشروع الاستعماري الفرنسي -الوسائل و النتائج-

أ/جيلالي بلوفة عبد القادر
جامعة تلمسان

كلمة التاريخ- History-Histoire يونانية الأصل؛ و يراد بها الإنسان الخبير و المجرب، و الإنسان العارف، و أتى منها فعل "Historéo" أي البحث عن المعرفة.

للتاريخ تعاريف اصطلاحية عديدة، منها:"أنه هو التدوين القصصي لمجموع شؤون[1] البشرية"، و لا يختلف اثنان بأنه هو أقدم العلوم الإنسانية إذ كانت المعلومات تنقل شفهيا، عن طريق الصور و الرسومات... على الكهوف و الصخور... بعد اختراع الكتابة، سجلت الأحداث الهامة... و انتشر في أوروبا خلال العصور الوسطى علم الشؤون المقدسة "HAGIOGRAPHIE" أو ما يسمى بالتاريخ الرسمي "HISTORIOGRAPHIE".

---

[1] - الصباغ ليلى، دراسة في منهجية البحث التاريخي، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق- 1979- ص:12.

بتعاقب الأزمنة، دونت الأمم و المجتمعات تاريخها، و كان للكتابة التاريخية قيمة في الحفاظ على ذاكرتها الجماعية، و بها ربطت ماضيها بحاضرها ومستقبلها. و وظفت الكتابة التاريخية لأغراض عديدة. فما قيمة و وزن الكتابة التاريخية الفرنسية ضمن المشروع الاستعماري في الجزائر؟ ما الوسائل التي استعملت لتحقيق أغراضه؟ و ما النتائج المترتبة عنه داخل الجزائر بمقوماتها وتراثها... و مبادئها العليا، و منها تاريخها.

1- التاريخ: تعاريف و مفاهيم جزائرية:

مهدت للموضوع بهذا العنوان، لتأكيد على أصالة و قدم تفكير الجزائريين (الطبقة المثقفة) بمغزى و قيمة التاريخ و دراسته عند الأجيال، و لتفنيد المرامي والمزاعم الاستعمارية بفراغ الساحة الجزائرية من هذا في 1830؛ إلا أن كتابات أبو القاسم سعد الله تؤكد وجود أسماء و أقلام برزت و سطعت في مجال الكتابة التاريخية قبل هذا التاريخ[1] و بعده.

يعرف الزواوي أبو يعلى، في كتابه (تاريخ الزواوة 1924) التاريخ "بأنه هو تنوير الجيل الجديد حتى يكون على بصيرة بمسيرة[2] سلفه".

و يرى أحمد توفيق المدني بأن "التاريخ هو عرض و تحليل و تعليل وحكم؛ و أن المؤرخ حاكم نزيه حر الضمير[3]".

---

(1) - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء السابع، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت-1998- ص:480.

(2) - سعد الله أبو القاسم، نفس المرجع السابق – ص308:.

(3) - سعد الله أبو القاسم، نفس المرجع السابق – ص:309.

و يصف محمد مبارك الميلي في مقدمة كتابه (تاريخ الجزائر في القديم الحديث ج1-ط1-1929) بأن "التاريخ مرآة الغابر و مرقاة الحاضر... ودليل وجود الأمم، و ديوان عزها، و مبعث شعورها و سبيل اتجاهها و سلم رقيها".

و في تعقيب عن قيمة هذا الكتاب، كتب عبد الحميد بن باديس رسالة في سنة 1937 إلى صاحب الكتاب، جاء فيها:"وقفت على الجزء الأول من كتابك... فقلت لو سميته حياة الجزائر، لكان ذلك خليقا، فهو أول كتاب صور الجزائر في لغة الضاد صورة كاملة[1] سوية".

و يرى المؤرخ سعد الله أبو القاسم في قيمة الكتاب، بأن "الميلي كتب تاريخا، هو في الواقع درس في السياسة و الوطنية[2]".

تظهر هذه التعاريف و غيرها كثير مدى قيمة التاريخ في أعين الجزائريين المثقفين باختلاف مشاربهم، و عرف هذا الاهتمام صحوة نوعية مع مطلع القرن العشرين، إذ ارتقى فهم التاريخ إلى نظرة سياسية بظهور حركة الأمير خالد؛ والتنظيمات السياسية (الأحزاب الجزائرية)... فشكل هذا مجالا حيويا للصراع ضد السلطة الاستعمارية التي أدركت قيمة توظيف التاريخ منذ بداية الاحتلال.

2- عوامل الاهتمام الفرنسي بالتاريخ الجزائري:

تعددت أسباب و دوافع اهتمام الاستعمار الفرنسي الاستيطاني بالتاريخ الجزائري و تجسدت عمليا بعدة إجراءات عملية شرعت فيها منذ بداية الاحتلال.

---

[1] - نص الرسالة مثبت في الجزء الأول من الكتاب.

[2] - سعد الله أبو القاسم، نفس المرجع السابق – ص:306.

لقد أدرك منظرو الاستعمار الاستيطاني "بأن ترويض الشعب الجزائري وإخضاعه يتطلب الجمع بين السحق المادي عن طريق عمليات الإبادة العقابية والردعية و بين محو كل رموزه الثقافية و الروحية و السياسية و لا يتأتى ذلك إلا باختطاف تاريخه و التنكيل بماضيه الحضاري[1]...".

لم تكن منطلقات الفرنسيين من وراء البحث التاريخي في الجزائر لم تكن علمية بحتة؛ إذ أسسوا لمنهج و منظور تاريخي يقوم على فرض وضعية تاريخية جديدة، هي قوة الاستعمار، و التأكيد على أنهم شعب متحضر يحكم شعوبا متخلفة، و أن السكان الأصليين هم مجرد مجموعات متناثرة لا يربطها تراث مشترك ولاتوحدها محن و آمال.

وفق هذه الضوابط، تحددت الدوافع الفرنسية للاهتمام بالتاريخ الجزائري، و هي:

- الرغبة في التعرف على شعب وقع في قبضة الحضارة الأوروبية (وسائل معرفية عديدة: الترجمة- الطباعة- الصحافة الرسمية- دور المستشرقين[2]...).
- إحكام السيطرة و الاحتلال و يكون ذلك، كذلك بجمع كل الآثار و تقييمها و استنتاجها.

---

[1] - ولد خليفة محمد العربي، ملاحظات أولية عن المنظومة التربوية و موقع التاريخ في المناهج المدرسية، الثقافة، الجزائر، العدد:109 - جويلية-أوت- 1995- ص:58.

[2] - أنظر: عميراوي أحميدة، من تاريخ الجزائر الحديث، ط2، دار الهدى – عين ميلة- الجزائر، 2004- ص- ص:43-46.

- الفضول العلمي، إذ تميز العقل الأوروبي بمبدأ العقلانية[1] الديكارتية في وقت كان العقل الجزائري (الشرقي) راكد.
- الدافع الديني: و منطلقه أن احتلال الجزائر جاء بعد صراع ديني دام ثلاثة قرون... و هو انتصار للمسيحية، و من أجل نشرها.

و يرى البعض في هذا الدافع الديني قيمة خاصة في دفع فرنسا نحو دراسة تاريخ الجزائر، إذ حسبهم "إن هدف الفرنسيين... هو التعرف على حقيقة الدين الإسلامي و مدى ارتباط الجزائريين به، و من ثم يسهل التعرف على مواطن القوة لمحاربة المسلمين بمواطن الضعف للتسلل إلى جسم العالم الإسلامي[2]".

إن دوافع الاهتمام الفرنسي بالتاريخ الجزائري عديدة، صبت كلها في فرض الواقع الاستعماري و خدمة مصالح فرنسا على المدى القريب و البعيد "ولا زال التاريخ يشكل بعدا استراتيجيا في حياة الأمة و مسألة[3] سيادة" حسب وصاية الرئيس الفرنسي (1994) إلى المتهمين و المنشغلين بالبحث العلمي.

---

(1) - سعد الله أبو القاسم، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي. بيروت – 1976- ص:18.

(2) - عميراوي أحميدة، نفس المرجع السابق – ص:12.

(3) - ولد خليفة محمد العربي، نفس المقالة السابقة – ص:61.

3- المدرسة التاريخية الفرنسية: وسائلها و مراحلها:

مع سير الاحتلال، توجهت الإدارة الاستعمارية الفرنسية في مجال البحث التاريخي التراثي إلى نشر الآثار القديمة عن الجزائر، و إنشاء اللجان العلمية المختصة و الصحف و الدوريات.

ففي 1837 أنشأت وزارة الحربية الفرنسية لجنة اكتشاف الجزائر العلمي التي قامت بنشر أعمال مهمة عن الجزائر في الآثار و العلوم الطبيعية و الفنون وعلم السلالات[1] و التاريخ.

في مجال الصحافة الرسمية، لعبت جرائد: المرشد الجزائري [*] (le moniteur Algérien) مند 1832، و الأخبار[2] (1839) و المبشر (1847) دورا أوليا في تبليغ سياسة الاستعمار، و الاهتمام بالأخبار المحلية و العناية بالأبحاث في التاريخ (خاصة لدى الجريدة الثانية).

عرف منتصف القرن التاسع عشر تأسيس الجمعيات التاريخية الآثرية التي اهتمت بالأبحاث التاريخية و الأثرية في الجزائر، و أصدرت أعمالا عبر نشرياتها (Bulletin) أو تقويما (Annuaire)، بداية من:

- جمعية قسنطينة للآثار (1852) بفضل ضباط فرنسيين، كانت تصدر تقويماو مجموعة مصنفات (Recueil)،

---

[1] - سعد الله أبو القاسم، نفس المرجع السابق – ص:15.

[*] - أو "الممرن الجزائري".

[2] - سيف الإسلام الزبير، تاريخ الصحافة في الجزائر، ج2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1982 – ص:45.

وبظهورها بدأت الدوريات المختصة في الدراسات التاريخية و الأثرية.

- الجمعية التاريخية (الجزائر) بفضل الحاكم العام الفرنسي راندون، و منذ 1856، و كانت تصدر المجلة الإفريقية وجاء في العدد الأول-أكتوبر- افتتاحية كتبها: السيد آدريان بربرغر رئيس تحرير المجلة الإفريقية (1856-1859)، مايلي: "....المجلة الإفريقية... ستنشر كل ما يمكن أن يلقي ضوءا جديدا عن التاريخ المحلي في مختلف عصوره... ستجتهد في جمع أو على الأقل إلفات النظر لكل ما يقال و ما يكتب من أشياء هامة عن هذا البلد من أجل أن تكون فيما بعد مكتبة تاريخية[1] إفريقية...".

- جمعية وهران الأثرية منذ 1878 و كانت تصدر نشرية اهتمت بالدراسات التاريخية و الأثرية في المنطقة، إضافة إلى دور مكتبة الجزائر التي فتحت رسميا في 1838 و أضيف إليها المتحف الأثري؛ و دور جامعة الجزائر (1909) التي فتحت عهدا جديدا في كتابة تاريخ الجزائر(بعد صدور قانون إنشاء المعاهد العليا في 1880) تأسست عدة معاهد مختصة في الجزائر، و هي:

- معهد الدراسات الشرقية (1933) الذي اهتم بالحضارة العربية الإسلامية و مظاهرها في الجزائر.

---

[1]- Revue Africaine, N°1, Octobre 1856, P :10.

- اتحادية الجمعيات العلمية لشمال إفريقيا (1935) من أجل تبادل الأبحاث و الخبرات... بعدما استكمل الاحتلال الفرنسي لدول المغرب العربي.
- و في 1940، تأسس معهد الأبحاث[1] الصحراوية.

نظرا لطبيعة الكتابات و الدراسات و الأعمال المنجزة، و الأولويات المسطرة عبر المراحل، و هوية الباحثين، تصنف المدرسة التاريخية الفرنسية الموصوفة بالتقليدية، أو القديمة[2] ، مرحليا إلى ما يلي:

***المرحلة (1830-1880):**

خلال الخمسين الأولى من الاحتلال، صدرت كتابات كثيرة من مذكرات، و تقارير رسمية و روايات شفوية، كتبها عسكريون و بعض الرجال المدنيين من المترجمين خاصة، و لقوا مساعدة من الإدارة العسكرية.

اتصفت كتابات الفرنسيين العسكريين بكونها كانت من أجل المدرسة الكولونيالية و الحضارة الغربية، لا من أجل الشعب الجزائري و الحضارة العربية الإسلامية؛ و أن كتابات هؤلاء تحكم فيها المركز الوظيفي أو المستوى

---

(1) – سعد الله أبو القاسم، نفس المرجع السابق – ص:24.

(2) – يطلق ستيفان جسال (Stephane Gsell) في كتابه "التاريخ و مؤرخو الجزائر" على العهد الأول من الكتابات الفرنسية بالمدرسة الجزائرية القديمة في كتابة التاريخ (1830-1880) حسب النظرة الفرنسية (الجزائر مقاطعة فرنسية).

الاجتماعي، و لا صلة لها بالجوانب الروحية [1]و الفكرية. و كانت من أجل التعرف على واقع الجزائر من خلال المشاهدة أو الملاحظة أثناء الحملات العسكرية و بواسطة المكاتب[2] العربية مثل كتابات: بيليزيي دي رونو، وبربرغر آدريان، و لويس رين... و اتبع هؤلاء و غيرهم منهجا وصفيا.

***المرحلة الثانية (مابعد 1880):**

تميزت بكتابات أساتذة جامعيين و باحثين مختصين، وجدوا العناية والمساعدة من المدارس العليا و المعاهد التي تأسست في الجزائر منذ 1880، فكان لتأسيس جامعة الجزائر و دور الجمعيات التاريخية و الأثرية و عقد المؤتمرات و إصدار الدوريات المختصة دورا مهما في هذه المرحلة و التي هدفت إلى خدمة الاستيطان، و تقديم صورة عن الجزائر تبعد الجزائريين عن الوعي بماضيهم و تصرفهم عن النظر[3] إلى مستقبلهم.

تميزت المدرسة التاريخية الفرنسية بعدة صفات أبرزها:

- اقتصارها على المصادر الغربية و الوثائق الأوروبية والتقارير الفرنسية.
- ابتعادها عن المصادر الحقيقية العربية التي تمنح واقعا صحيحا عن الجزائر (مثل إهمال الوثائق العثمانية).

---

[1] - عميراوي أحميدة، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، ط2، دار الهدى، عين ميلة (الجزائر)، 2004 - ص:13.

[2] - سعيدوني ناصر الدين، التاريخ و أهميته في بناء الوطن، الباحث، ع2، الجزائر، نوفمبر 1984 - ص:52.

[3] - سعيدوني ناصر الدين، نفس المقال السابق - ص:52.

- لم تتخلص هذه الكتابات الفرنسية من المنظور الاستعماري (كان التركيز على الفترتين الرومانية و الفرنسية[1] دون غيرهما).

- مع مطلع القرن 20، عرفت الكتابات الفرنسية تحسنا نوعيا نظرا لعدة اعتبارات؛ منها: حركة الاستيطان الواسعة بعد 1871، و بداية مرحلة استقرار و وضوح، و تجمع متطلبات "التفسيرية الإيديولوجية" و دور جامعة الجزائر (1909) التي ساهمت في إثراء النقاش العلمي حول تاريخ الجزائر و الاستعمار الاستيطاني[2]... و تبلور القضية الجزائرية بظهور أحزاب باتجاهات و ميول مختلفة نقلت النقاش إلى مجال فكري يهم الرأي العام المحلي و الدولي.

و اتسمت الكتابات خلال المرحلة الثانية بميلها نحو منهج تفسيري شاع استعمالا مع مطلع القرن العشرين.

4- المدرسة التاريخية الفرنسية: ما لها و عليها:

تتصف المدرسة التاريخية القديمة الكولونيالية باختلاف مراحلها، و خاصة منذ المرحلة الثانية، بكونها خادمة للاستعمار و حاملة لرسالة حضارية غربية بكل مقوماتها... إلا أنها حققت بعض الجوانب الإيجابية، و لها في المقابل سلبيات عديدة.

---

(1) - سعيدوني ناصر الدين، نفس المقال السابق – ص:53.

(2) - عميراوي أحميدة، نفس المرجع السابق – ص:15.

أ-الجوانب الإيجابية:

حقق المؤرخون الفرنسيون المختصون، و بفضل الهيآت العلمية و المدارس العليا و المعاهد، و دور المحفوظات و الدوريات و الصحافة الرسمية... بعض الأهداف الإيجابية؛ و منها: جمع المصادر[1] و حفظها، نشر العديد من الآثار العربية و ترجمتها إلى اللغة الفرنسية، و استخدام تقنيات حديثة في البحث التاريخي (الحفظ و التصنيف و الترتيب) و إقامة تبادل علمي و تشجيع الباحثين بفضل المعاهد العليا، و تبادل الزيارات (مثل: تجربة إنشاء اتحادية الجمعيات العلمية لشمال إفريقيا سنة 1935 لتبادل الأبحاث بين البلدان الخاضعة للاستعمار الفرنسي).

ب-الجوانب السلبية:

مقابل المميزات و الخصائص الإيجابية التي اتصفت بها الكتابة التاريخية الفرنسية، لم تخلو هذه الأخيرة من عيوب كثيرة، و منها:

- تشكيك الكثير من الفرنسيين في المصادر العربية، بل اعتبروها غير صحيحة و يجب إغفالها و عدم الاعتماد عليها، و أن الوثائق الرسمية الأوروبية هي الصحيحة و دون غيرها[2] يترك.
- جهل الكتاب الفرنسيين للغة العربية جعلهم غير قادرين على دراسة هذه المصادر العربية و عدم معرفة طبيعة المجتمع

---

(1)- voir l'étude de Yaccono Xavier, l'Algérie depuis 1830, Revue Africaine, 1956, P-P : 1-44.

(2)- سعد الله أبو القاسم، نفس المرجع السابق – ص27 و عميراوي أحميدة، نفس المرجع السابق – ص12.

الجزائري (ثوابته و مقوماته). و أهملوا في دراساتهم "الشعب الجزائري" الذي هو محور الدراسة الجادة، بل اعتبروا بأن الجزائر منطقة جغرافية تداولت و تعاقبت عليها دول و شعوب، و تركزت الدراسات الفرنسية على فترتي الرومنة و الفرنسية[1]. و تقرب المؤرخون العسكريون و المختصون للسلطة الفرنسية و كان الكثير منهم طرفا فيها؛ فجاءت كتاباتهم تعبيرا عن سياستها و تنفيذا لها و ابتعدت عن العلمية و الموضوعية، فتناولوا قضايا عامة اقتصادية و اجتماعية أظهروا من خلالها مميزات النظام الفرنسي، قوة الجيش و الإدارة الفرنسية الرسالة الحضارية في الجزائر، التفوق الحضاري الفرنسي، نشر المسيحية و روجوا أفكار الإيديولوجية الاستعمارية، و أن الجزائر جماعات قبلية و مناطق فارغة...و أن الثورات الشعبية ما هي إلا دليل على التعصب الديني لدى "الأهالي-Indigène"، و لم تكن إلا عصيانا و تمردا لدوافع اقتصادية و اجتماعية، لا تمد صلة بأسباب سياسية في مواجهة و محاربة الاستعمار.

صدرت عدة دراسات بمناسبة الذكرى المئوية للاستعمار الفرنسي بالجزائر، منها دراسة هنري ماسي حول الدراسات العربية في الجزائر 1830-1930، و كتابات مثل كتاب "التاريخ و مؤرخو الجزائر" لجورج ايفير، و فيه اعترف بأن الكتابات التاريخية الموضوعية (الخاصة بالجزائر) قليلة و سطحية.

---

[1] - سعيدوني ناصر الدين، نفس المقال السابق.

بقت نفس الوضعية المتميزة ببعد الكتابة التاريخية الفرنسية عن الواقع الجزائري، بعد مرور فترة زمنية طويلة...فمناسبة الذكرى المئوية لميلاد الجمعية التاريخية الجزائرية و صدور مجلتها المجلة الإفريقية (1856-1956)، أنجزت عدة دراسات تاريخية تقييمية لواقع البحث التاريخي الفرنسي في الجزائر، كان من بينها: دراسة غيي "لوتورنو" عن العصور الوسطى و العهود الحديثة، و الذي خلص فيها إلى القول بأن "ما يزال البحث التاريخي في الجزائر المسلمة غير مكتملا و بعيدا عن الانتهاء[1] ".

و دراسة غزافيي ياكونو (Xavier Yaccono) الذي أكد فيها بأنه "لا توجد دراسة شاملة عن سياسة فرنسا الإسلامية و لا عن التحول الذي أصاب الأهالي بتأثير الاستعمار[2] ".

إن هذا الواقع لازال مستمرا و بتأكيد من المؤرخين الفرنسيين، إذ يرى بن يامين ستورا (Benjamin Stora) بأن "الكتابات الفرنسية عن الثورة [الجزائرية] تفتقد إلى الموضوعية لاعتمادها على الأرشيف الفرنسي فقط. إن البحث التاريخي، حتى يكون علميا و دقيقا، لابد أن يعتمد على عدة مصادر، و هذا ما لم يحدث في الكتابات الفرنسية[3] ".

---

(1)- Letourneau Guy, (in) revue Africaine (1856-1956), P :143.

(2)- Yaccono . X, opcit (voir introduction).

(3) - تصريح لمؤرخ فرنسي ستورا بن يامين خلال أيام الصالون الدولي السابع للكتاب- الجزائر- سبتمبر 2004، أنظر جريدة الخبر اليومية- ع:4194، ليوم 2004/09/18.

خاتمة:

من خلال ما سبق، يمكن استخلاص النتائج و الملاحظات التالية:

- إن التفكير الفرنسي بتوظيف التاريخ لأغراض تخدم مصالح فرنسا الإستراتيجية و الاستعمارية في الجزائر قديم، بل سبق الاحتلال.
- استخدمت وسائل عديدة مظهرها علمي أكاديمي وجوهرها خدمة الاستعمار، و أن تأثير هذه المدرسة التاريخية "القديمة- التقليدية- الكولونيالية" (باختلاف أوصافها) لازال قائما.

و استدعت في المقابل، و منذ فترة الاستعمار إقامة مدرسة نضالية وطنية ملتزمة[1]؛ بإقامة منظور و منهج و تصور تاريخي جزائري، بغربلة تاريخنا، بواسطة الكتابة أو إعادة الكتابة و العودة إلى الذات و الأصل و ترسيخ المصالحة التاريخية على أرض الواقع.

---

(1) – و ... المأمولة، و هي ألقاب و أوصاف استعملها: سعيدوني ناصر الدين في المقال المشار إليه سابقا.